نساء عرفن فى زمن النبى

للأستاذ ناصر سعد

هذه نبذة مختصرة عن نساء عرفن فى زمن محمد (ص) منهن من اشتهرن بعمل خير أفدنه به فتركن لأنفسهن أحسن الأثر بنفسه فأثنى عليهن .. ومنهن من دعون لإيذائه ومحاربة دينه الحنيف الجديد فتركن لأنفسهن أسوأ الأثر بنفسه وغضب الله عليهن ورسوله ؛ ولا ريب فى أن الخيرات منهن اندفعن وراء إخلاصهن للرسول العظيم ووراء إيمانهن بدينه الجديد فأتين بما يبهر من الأعمال وخلدن أسماءهن فرقين مكانة عالية فى الإسلام والتاريخ تحفز المرأة الحديثة إلى اقتفاء آثارهن والتحلى بصفاتهن الحميدة ؛ وأما الأخريات اللواتى دعون لإيذائه ونبذ دينه فقد اندفعن وراء عصبيتهن العشواء كانت ترين على قلوبهن حتى تبين للبعض منهن الحق من الباطل فيما بعد ، فتسرب الإيمان إلى قلوبهن وأسلمن وعدن يخدمن الإسلام مكفرات عما سلف من أعمالهن فعفا عنهن الرسول (ص) . ومن أولئك النساء :

آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة أم النبى (ص) حملت به فكان كل ما فى الدنيا يهيجا بعينها ، تبتسم لها الحياة فتبتسم لها ، وليس يسعد المرأة أكثر من مولود تضعه بعد مشقة الحمل والولادة إذ يهون عليها كل ألم لابتسامة تنتظرها من مولودها الذى تضع فتحنو عليه وتحبه ، لأن بهذا الحب سر الوجود والحياة ، وما زالت الحياة تبتسم لابنة وهب حتى ذهب عنها شريك حياتها عبد الله بن عبد المطلب وهى ما زالت تحمل جنينها — على أصح الأخبار — فبدت فى سماء حياتها سحابة سوداء أزالت عن ثغرها تلك الابتسامة والبهجة ، وملأت قلبها عزماً وحزماً صممت بهما أن تربى مولودها المرتقب خير تربية لتمحو ما بقلبها من الحزن بدعابته وابتسامته ، فولدته وعلى محياه سيماء النبوة ، وأرضعته بلبان الشرف والسؤدد . ثم إنها إما لضعف اعترى صحتها أو لعادة كانت جارية آنذاك أرضعت وليدها من ثويبة مولاة أبى لهب التى أرضعت عمه حمزة (ض) ثم أرضعته أم كبشة حليمة بنت أبى ذويب السعدية التى أرضعت معه عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، ولم تزل آمنة تجد بتربية ولدها بكفالة جده حتى ظهر من حسن خلقه وجمال طلعته — على صغر سنه — ما يدهش ويحير . فمن ذلك أنه لما كفله عمه أبو طالب بعد وفاة أمه وجده ، وعمره سبع سنوات ، كان حين يجلس مع صبيان البيت يكف عن النهب وتمتد يداه ، على عكس لداته من الأطفال ، مما اضطر عمه أن يعزل له طعامه ، وليس انا أن نقول إن ظهور هذا من محمد (ص) كان ليتمه وشعوره بالوحدة .. كلا فإنه ترى فى هذا البيت وألف صبيانه . وإنما ذلك سر إلهى ونتيجة للتربية الصحيحة التى نهجتها آمنة بتربية ولدها ، لأن للمرأة الأثر المباشر فى تربية وليدها وتنشئته ، هذا هو أثر آمنة بنت وهب فى حياة سيد البشر (ص)

ومنهن مرضعته حليمة السعدية التى سنذكرها .. وهذه المرأة كانت على جانب عظيم من حسن الطبع وجمال الخلق ورقة القلب ؛ فرضعات بنى سعد كن يأتين مكة ليرضعن أبناء أشرافها لضيق ذات أيديهن ، ولم تجد حليمة غير يتيم عبد المطلب لترضعه لفقرها العطف عليه وهى لا تنتظر من المال ما ينتظره صويحباتها اللواتى رافقنها إلى مكة لغرض الإرضاع ؛ فهى لو لم تكن ذات شرف وخلق قويم وقلب رقيق لم يرضع عبد المطلب حفيديه محمدا وأبا سفيان منها ، فهى من بنى أسد بن بكر بن هوازن وتنتهى لقيس عيلان .. بقى النبى (ص) عندها أربع سنوات ربته على المروءة والشهامة والصدق والأمانة ثم ردته إلى أهله وعمره خمس سنين وشهور واحد . وقد أحب النبى مرضعته حبا كثيراً حتى أنه لما أخبرته بعد فتح مكة إحدى نساء بنى سعد بوفاتها ذرفت عيناه عليها ثم قالت له الساعية : — (أخواك وأختاك محتاجون) فأرسل إليهم ما يحتاجونه . فقالت له تلك الساعية : — (نعم والله المكفول كنت صغيراً ، ونعم المربى كنت كبيراً عظيم البركة) .. لا ريب فى أن الذكريات تلك الساعة عادت برسول الله فتذكر أيام طفولته وحنو مرضعته عليه وإلفته مع إخوانه ، إنها لساعة حلوة مرة اختلطت بها ذكريات العاطفة السعيدة وجلال الموت . . هذه حليمة التى ذرف عليها دمع النبى (ص) تركت ولا شك أثراً عميقاً بقلبه الرقيق الحساس

ومنهن أم أيمن (بفتح ميمها) بركة الحبشية مولاة عبد الله أبيه، حضنت محمداً بعد وفاة أمه. ولاريب فى أن هذه المرأة وقد احتواها بيت عبد المطلب وخدمت ابنه عبدالله كانت امرأة بارة بمحمد، تعترف بجميل جده وأبيه، وتقدر أثر اليتم بنفس ربيبها وشعوره به، فأحاطته بعطفها وحنانها، وخففت عنه ذلك الألم وهو الطفل الرهف الحس فاعتاض بها عن أمه ، كان لها جميل الأثر فى نفسه

ومنهن خديجه بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ابن كلاب المرأة الحكيمة الموسرة كلها أبو طالب فى أن توكل محمداً على تجارتها وهو الصادق الأمين، فتأملت وهى المرأة الرشيدة فأنست خيراً وركنت محمداً واشترطت له كل سفرتين بقلوصين ، فصار يذهب بتجارتها ويقدم إليها الربح الجزيل بأمانة وإخلاص، فلما أعجبها إخلاصه وأمانته وصدقه عزمت على التزوج منه ولم تكن معه على صلة متيسرة بدليل وساطة نفيسة بنت منية أو كما قيل بوساطة ميسرة مولاها بينهما . وكان أبوها خويلد يرغب من تزويجها من محمد ، فاحتالت بأن دعت قوماً من قريش فيهم أبوها وقدمت إليهم طعاماً وشراباً ، فلما أكلوا وشربوا وثمل خويلد قالت له : — (إن محمد بن عبد الله يخطبنى فزوجنى إياه) فزوجها ورضى بذلك ، فقامت إليه وألبسته وطيبته على عادة من يزوج ابنته آنذاك ، ولما أفاق ورأى ما هو فيه سألها يقول : — (ما شأنى ؟) قالت : — (زوجتنى من محمد بن عبد الله) . قال : — (أنا أزوج يتيم أبى طالب ؟ لا لعمرى) قالت : — (ألا تستحى.. تريد أن تسفه نفسك عند قريش فتخبر الناس أنك كنت سكران ؟) ثم رضى بعد إلحاح وتم الأمر ، وعمرها أربعون سنة ولمحمد من العمر خمس وعشرون سنة . . إن هذه الرواية لخير دليل على تعلق خديجة بمحمد وحبها إياه لما اتصف به من الخلق الحميد ، وإلا فلا يسوغ عليها الرجال وهى الشريفة الموسرة .. وليس فضل خديجة على الإسلام بمجهول ولا مداراتها للنبى بمنكورة، فلقد كان لها رضى الله عنها أطيب الأثر بحياة الرسول قبل النبوة وبعدها إذ كانت تزوده بما يكفيه من الطعام فيذهب لغار حراء يقيم فيه الأيام والليالى متعبداً مفكراً فى أمر ربه . ولما جاءه الحق من ربه رجع لخديجة وهو يرجف ويقول : — (قد خشيت على عقلى) فشجعته وثبتته وقالت : — أبشر — والله — لايخزيك الله أبداً .. إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتعين على نوائب الدهر) ثم صدقته وأسلمت ؛ هذه سيدة قريش التى كان لها الأثر الفعال بحياة محمد (ص) والتى كانت أول أم للمؤمنين

ومنهن أسماء بنت أبى بكر (ض) كانت ذكية الفؤاد شديدة الحرص والحساسية، بدليل تمكنها من نقل الزاد للنبى (ص) وأبيها (ض) وهما مختفيان فى الغار.. فلم يطلع على سرهما أحد من قريش.. إذ لولا يقظتها لتمكنوا من معرفة مكان النبى وألحقوا به الأذى . إن تاريخ هذه المرأة فى الإسلام معروف، وإنما أوردنا منها هذه النبذة لنتصور أثرها بقلب الرسول فى تلك الساعات الحرجة الرهيبة التى هدر بها دمه من صميم أهل مكة على قتله

ومنهن أم معبد عاتكة بنت خالد بن خليف الخزاعية ، وهذه المرأة لما توجه النبى إلى المدينة وقد اقترب منها ونزل بيتها فقال عندها وظهر من آيات معجزاته ما أدهش أم معبد فقد مسح ضرع شاة لها فحلبت لبنا كثيراً وبقيت كذلك للسنة الثامنة عشرة بعد يوم الهجرة، ومن ذلك ظهور البركة فى الطعام الذى قدمته أم معبد للنبى ما كل منه وتزود وكان قليلا بعينها . هذه عاتكة الخزاعية هى التى صارت فيما بعد داعية للنبى ودينه الجديد تبشر به لإعجابها بسمو أخلاق نبيها وآيات معجزاته

ومنهن عائشة أم المؤمنين (ض) بنى بها النبى فى المدينة بعد الهجرة بتسعة أشهر، وأثرها بحياة الرسول أشهر من أن نترجم له، فقد أحبها الرسول وصارت بعد وفاته ثقة برواية الحديث الشريف . وقد كانت من النساء الواتى يمتنين بالمحاربين فى الغزوات فتقدم إليهم الماء والطعام محمولا على ظهرها

ومنهن عصماء بنت مروان الأموية كانت تكره النبى وتؤذيه وتحرض الناس وتؤلبهم عليه وتعيب دينه ، فكان لهذه المرأة وهى على هذا الوصف أسوأ الأثر بقلب النبى (ص) ولما رأيناه يجد من قتلها وفتك بها ، وذلك أن عمير بن عدى وهو أعمى من رهطها وكان موالياً للنبى.. حلف ، ليقتلنها إن عاد النبى من بدر لأنها كانت تؤلب الأعداء عليه، فلما رجع ذهب إليها عمير ليلا فوجدها

نائمة ولها رضيع يرضعها فأبعده عنها وغرس سيفه فى صدرها فقتلها وخرج دون أن يعرف أحد بأمره، فلما كان الصبح جاء عمير إلى المسجد ليصلى مع النبي، ولما صلى وانصرف نظر إليه النبي وقال : — (أقتلت ابنة مروان ؟) قال : — (نعم يارسول الله) قال : — (نصرت الله ورسوله) فقال عمير : — (هل على شئ من شأنها يارسول الله ؟) فقال النبي : (لا ينتطح فيها عنزان) .. هذه المرأة التى كانت تؤلب الأعداء على النبي وتدعو لإيذائه كانت ولا شك على وئام مع أعدائه الذين كان منهم اليهود فقبحها الله وقبح ما كانت تدعو له ..

ومنهن سلافة بنت سعد بن الشهيد زوج طلحة بن أبي طلحة ؛ كانت من أعدى أعداء النبي ويكفى تبياناً لذلك تحريضها ذويها على المشاركة فى الحرب ضده فى غزوة أحد ، وأنها وضعت مائة من الإبل جائزة لمن يأتيها به ، وكان أن حمل زوجها طلحة راية المشركين بإحدى الحملات فى أحد فقتل ثم حملها بعده ابنها أبو شيبة فقتله حمزة (ض) وحملها بعده عمهما أبو سعد بن طلحة فقتله سعد بن أبي وقاص ، فحملها بعده ابنها مسافع بن أبي طلحة فقتله عاصم بن ثابت ، فحملها بعده ابنها الحارث فقتله عاصم أيضاً . هذه المرأة التى جعلت بيتها بوتقة يغلى بها الحقد على رسول الله زاد هذا القتل فى حقدها عليه وعلى المسلمين معه فحلفت لتشربن الخمر فى قحف عاصم بن ثابت قاتل ولديها مسافع والحارث فأخذت تحث المشركين على الثبات وتدعو لحمل اللواء حتى تداول حمله كثيرون من قريش كان نصيبهم القتل ، فحملت عمرة بنت علقمة الحارثية الراية بعدهم فتراجع المشركون يطلبون السلامة .. وفى ذلك يقول حسان بن ثابت (ض) معيراً إياهم

عمرة تحمل اللواء وطارت ... فى رماح من القنا مخزوم
لم تطق حمله الرجال منهم ... إنما يحمل اللواء النجوم

ومنهن فاطمة الزهراء وأثرها بحياة النبي غير خاف على أحد فهى حبيبة أبيها وأوثق الناس صلة به وأشفقهم عليه .. خرجت مع نساء من المدينة وهى تلهف على أبيها .. فقد جرح بأحد فلما رأت جراح وجهه احتضنته وعانقته وصارت تمسح الدم منه ثم أخذت ماء وغسلت وجهه .. ما أروعه من موقف خفق فيه قلب محمد بحب ابنته وحنوه عليها .. وكأنى بالزهراء (ع) تلك الساعة يترقرق الدمع من مآقيها ويخفق قلبها بالحب والحنان . هذه الزهراء وماأنصع حبها لأبيها وما أحسن إسلامها .. خرجت هى وأربع عشرة امرأة منهن أم سليم بنت ملحان وعائشة أم المؤمنين (ض) لحملت الماء فى قربة والزاد على ظهرها تطعم المؤمنين المحاربين وتسقيهم .. هذه الزهراء أم حفيدى الرسول تركت أجل الأثر فى قلب أبيها الحنون

ومنهن هند بنت عمرو بن حرام زوجة عمرو بن الجموح .. امتلأ قلبها بالإيمان وحب الدين الجديد، فلم تزل تحرض ذويها على قتال المشركين فى أحد حتى استشهد زوجها وهو يقاتل رغم عرج كان به .. واستشهد ابنها خلاد وأخوها عبد الله فحملتهم على بعيرها وأتت المدينة فرأتها أم المؤمنين عائشة (ض) بظاهرها وقد خرجت تستروح مع صويحبات لها .. فقالت لهند: — (عندك الخبر .. ماوراءك ؟) قالت هند: — (أما رسول الله فصالح وكل مصيبة بعده جلل) قالت عائشة : — (من هؤلاء ؟) قالت : (أخى وابنى خلاد وزوجى عمرو بن الجموح) قالت : — (فأين تذهبين بهم ؟) قالت هند : — (إلى المدينة أقبرهم) أما أكبر هذا القلب قلب هذه المرأة وما أعمره بالإيمان ! وأى رجل يحمل مثل هذا القلب وأية امرأة ... يا للعجب امرأة تفقد زوجها وابنها وأخاها فى يوم واحد فلا ترتجف لها قلب ولا تدمع لها عين ! إنه حال مدهش والله ... ولكن لا عجب ولا دهشة فإن الإيمان بالله وحب الشهادة فى سبيل الدين لا يجعلان متنفذاً للحزن فى القلب .. ما أعظم هذه المرأة إذ قالت للرسول (ص) حين ذكر قتلاها : — (يا رسول الله أدع الله أن يجعلنى معهم) إنها لم تقل هذا جزعاً من الحياة بعد ذويها ، بل قالته حبا بالشهادة فلما نالها مدافعة عن دينها الذى آمنت به وطهر قلبها من كل رجس

البقية فى العدد القادم

ناصر سعد